الشاعر والأرض والزهرة الراعفة ..

دراسة في شعر حميد سعيد

بقلم طراد الكبيسي

يمكن ان نبدأ من (عودة الى مرفأ البداية) او من (التجربة والكلمات) او من (المرثية) او من (معلقات العصر) . ولكن البدء من البداية يكشف لنا اوائل التوهج الشعري ـ الطفولي لدى الشاعر . اي شاعر حق . حيث يطول الحديث ، ولا يطول . وحيث لم يغيّب براءة الابتسام ، نداء التمزق للانسان المعاصر ، وضجيج الحضارة التي لم تمس الا ظواهر الاشياء منا ..

واول ما يلفت نظرنا في طفولة الشاعر ، صورة النخل وسواقي الماء ، تدور على نفسها . وثمة دفق الطفولة المتوهج في النفس حد الغرور :

« منذ عشرين عاما كان ابي لم يزل ..
يزرع الحلم البكر بين شموخ دمي وانتظار القطار . »

منذ عشرين عاما .. ومع نكبة فلسطين الاولى ، يبدأ الشاعر طفلا يصحو على احاديث العشايا .. ومنها الحديث عن فلسطين . لم يكن الصغير يعرف ما فلسطين : ربما كانت واحدة من بنات الحسين ، ذهبت أسيرة كسيرة .. (الم نقل في اكثر من مرة ، ان الشعر العربي الجديد ، والشباب المعاصر ، ولد وفي فمه طعم الرماد المحترق بتراب فلسطين)

لم يكن يعرف الطفل فلسطين ، ولكنه كان يصحو على صوتها المختنق الذبيح تحت حد سيف الشمر (وشمر فلسطين هي: الامبريالية والصهيونية) .

ولكن ما الذي بعث بالشمر بعد هذي السنين الطوال ؟
هنا بدأ السؤال .. واول الشعر : سؤال . ما اخبار القوم ؟ ولكن القوم (الحكام) صفوا حساباتهم بالتي هي اضمن لمصالحهم !

لقد كان زمن الطفل ، هو الزمن المأسور .. ويكبر الطفل .. يتكون مثل شجر النار الذي يوقد بالغضب الدائم . فيعرف طريقه .. يتقدم .. منهيا بدايته ، ومبتدئا طريقه الجديد .. فالموت مصير كل شيء .. ومبدىء كل شيء . فالحاضر الذي لا ينبىء بالمستقبل : سكون وعدم . والشاعر الذي لا يحمل اسم الآتين ، لن يكون سوى ضيف على الحاضر الذي لن يمكث طويلا حتى يصبح ، موتا : ماضيا .

الشعر اذن مغامرة . والشاعر مغامر ، لن يثنيه ان طرقه : اغراء او تحذير . بقدر ما يحثه الكشف ، والاشراق .. والبحث عن نبع ثر :

« قالوا ان القادم يحمل وجه البوم .. وقالوا
يحمل وجه النسر
لم تسمع ما قيل وسرت كظمآن ..
يبحث عن نبع ثر . »

والشاعر ليس مغامرا في الحاضر او المستقبل ، انه مغامر في الماضي ايضا . وهذا هو السر في اهتمام حميد بالمغامرة .. تلك البؤرة المشعة في ظلمات التاريخ . وبالمغامرين اولئك الثوار الذين يلتقي معهم انسان اليوم في اكثر من نسب وسبب (سحيم، ابو يعلى الموصلي ، طارق بن زياد ، عمار بن ياسر ..)

ان التاريخ هذا البحر الواسع الممتد ، المتحد بالصحراء ، والانسان ، والثورة ، والجسد .

لم يعد البحر ، كما كان في نظر اسلافنا ، رعبا وموتا (بحر ظلمات) انه الامن ، والخبز والنعمة ، نهرع اليه .. نستجير به من النار (الارض ـ الاردن) وانه الرمضاء .

انه البحر الذي يحمل لنا تباشير الثورة ، وغضبة التاريخ ، واصداء الصحراء .. انه البحر الذي يصير صحراء ـ اذا شئنا ـ والصحراء التي تصير بحرا ان صفونا . انها (صحراء دجلة) كما قال ذو الرمة . او انها صحراء الاطلسي ، تمتد من المحيط الى الخليج :

ايحدث ان تمد الى الخليج رذاذك الابوي ، تغرقهم
هم الاعداء اسرف عالم الاحجار في دمهم ..
ظلام ..
لم اعانق صحوة في الوجه
والظما اعتراف .. زمزم يبست
وغار الماء فيها
والحطيم مباءة ..
نجد فراش ساخن للعهر
لا تلمس جبيني .. كل ماتك لن يطفّي جذوة في القاع
او يروي غرور العابرين

ومن يروي (غرور) الشاعر .. ! فالشعر هذا الغرور النبيل ، المؤرق .. هذا المطراميلاد، الذي يسوّي بين بغداد والصحراء، ويمطرهما:

---

* تقوم هذه الدراسة على ديوانيه (شواطىء لم تعرف الندفء) الصادر في بغداد ١٩٦٩ . وديوانه (لغة الابراج الطينية) الصادر عن دار الاداب ـ بيروت ١٩٧٠ . وبعض القصائد بعدهما .

كلمات مسرة .

الشعر هذا الإختيار الاصعب ، بين السهل والصعب .

* * *

ان ثمة قضية اساسية ونبيلة ، وذات ابعاد متعددة تؤرق الشاعر المعاصر ، تلك هي قضية الانسان وتحرره من القيود التي تشد عـلى عنقـه .

وهذا الانسان عند حميد سعيد ، ليس انسانا واحدا ، وببعد واحد . انه انسان متكاثر . وبابعاد متكاثرة : انه الانسان السياسي ، والانسان الاجتماعي ، والانسان العاشق ، والانسان اللانسان (المستلب) الانسان المهرج الذي يخرج من اردانه (أرانب بيضاء) في لحظة الاستلاب والانفصام .. لكنه لا يلبث ان يعي ذاته ، ويعي مشاهديه فاذا هـو لا يفرّق الاموات عن الاحياء منهم ..

يعني هذا ، ان هؤلاء (الاناسي) اول ما يتسمون به هو الوعـي .. الوعي الشديد .. وهذه مأساتهم وامتيازهم ايضا .

في (من معلقات العصر) نواجه وجه الانسان الاول .. الانسان البراءة .. ذاك الذي لوثوا سمته البدوي النقي .. فلم يعـد منهم، لقد ارتفع سور الانفصام بينهما ، وانطلق خنجر العقم يمزق خيوط التواصل بينهم وبين الحقيقة . ولكن الشاعر هنا ، وهو يعي ذاك بحدة وعمق ، يحافظ على روحه ، وهو يعلم ان (جهنم هي معبرنـا لليقين .. وان صوتها البكر .. ما زال يسأل هل من مزيد !)

وهذا يعني ـ حيث يكون الشعر سياسيا ، ليست السياسـة بالمفهوم العام هي القضية الجوهرية . الشعر هو الجوهر ـ اي مـا يحسه الشاعر لا ما يعتقده وفق المنطوق السياسي الذي يؤمن به على صعيدالايديولوجيا (العقيدة).وبهذايختلفشعراؤنا اليومعنشعراءالامس في فهم جوهر الشعر وجوهر السياسة . فالشعر في مفهوم شعرائنا اليوم هو الجوهر ، والسياسة عارضة فيه . اما شعراء الامس فقـد كانت السياسة هي الجوهر ، والشعر لا يعدو كونه الوسيلة ، كاية وسيلة اخرى ، حيث يعبرون بها . وهذا لا يعني ان شاعرنا اليـوم (كائن غير سياسي) انه شاعر اولا . ولكن قضية العصر والانسان هي التي تملي عليه ان يكتب الشعر السياسي ، والهجاء السياسي (نقد المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي تستلب الانسان انسـانيته) اسهاما منه ، وايمانا بأهلية الانسان لان يكون كما يريد ،رافضا القهر والظلـم .

اما في (سحيم) حيث نواجه الانسان العاشق ، تقام في وجهه الوف العوائق . ضائعا لا يسأل عنه احد ، ولا يسأل التاريخ ايضا . لان من عادة التاريخ ان يسقط امثال هؤلاء . فلقد ظل التاريخ عبـر القرون السابقة لا يهتم الا بالطبقات المستغلة وبأبنائها . اما ابنـاء الشعب ، والفقراء منهم خاصة والعبيد ، فلا وجود لهم في نظره .

ان التاريخ المعاصر ، والشاعر الثوري، مطالب اليوم باعادة تقييم امثال هؤلاء المتمردين من ابناء الطبقات المسحوقة على ضوء الرؤيـة الثورية المعاصرة . ان حميدا يفهم هذا جيدا ويدركه . وينطلق منه ، في فهم الافكار والاشخاص والحركات الثورية في التاريخ العربي .

ان هذا الجانب غني ومهم في تجربة حميد الشعرية . واغفاله يعني سحب البساط من تحت اقدامه . يعني اغفال جميع الاصـداء والوجوه التي تتردد في وجدانه ، وتنعكس على رؤيته الحديثة : صوت الغفاري ، وصوت زينب في كربلاء ، ووجه عمار بن ياسر ، وكل وجه للصعاليك القدامى ، والعيّارين من القرن الثالث للهجرة .

على ان نظرة حميد للتراث هذه لا تعبر عن القدسية التي يحملها التقليديون بل تعبر عن الامتداد الثوري لحركة الخلق في التراث ، في حركة الخلق المعاصرة :

يا وجه عمار بن ياسر ..
كل وجه للصعاليك القدامى
أهلوك ينتجعون أرصفة الرشيد
ويكتبون الشعر للغابات للانهار
نقرا ما كتبنا للجليد
أو يقرأ الانسان موته ؟
ويبيع للصحراء صوته !

ان الوعي بالتراث : لا يقف عند وعي التجربة ، وكشف ابعادها : مثلي من يطأ الابكار
يتبطن ابعادا لم تعرفها الاسرار
ويمزق من قبل قمصان الاشعار .

بل يتجاوزه الى وعي الكلمات . فالكلمات بيد الشاعر هي ادوات الثورة . و (اندى الكلمات .. اصدقها .. كلمات البسطاء) دون ان يعني هذا السقوط في الشعبية المبتذلة التي وصفها لينين بانها تقديم نتائج جاهزة في صيغة تبسيطية الى درجة العبث ، تملحها العبارات والكلمات المضحكة ، بحيث ان القارىء لا يحتاج الى ان يمضغ بل الى ان يزدرد وحسب . (١)

ان الشاعر المعاصر بقدر ما يرفض غواية التراث يؤسس جذوره في منطقة الحرائق منه ، لتمتد فتشعل الحاضر والمستقبل .

ليس التراث هذه المجموعة من المرويات والاشعار والاخبـار المسطورة في كتب التاريخ ، والشخصيات المضمخة بعطور الخرافـة والقذارة التي تصنع المعجزات .. التراث هذا الدفق الثـوري الجماهيري الخلاق ، والفعل الذي يتجاوز الازمة الى الخلق والتغيير. وعدم الفصل بين العام والخاص ، او بين الفرد والجماعة . هـذا التوحد لرياح الثورة التي تجيء من الماضي لتلتقي بالحاضر ، لتصير في المستقبل .

انه التوحد بين الارض والماء والزهرة ، وبين البحر والعاصفـة والشراع . حيث يسري الغضب وريح الثورة في دم الشاعر ، الـى مدن النار .. يرفض معالم الحضارة الزائفة ، ويرفض الدولة هـذه الآلة الجهنمية التي ما وجدت الا لتسلب الانسان روحه ، بقـوة القانون ! ليست هذه فوضوية ، ولكـن محترف الثـورة يـرفض ان يتحول الى جزء في هذه الآلة :

أسرى بي غضب الوجد العربي الى مدن النار
حملتني ريح الثورة .. باقة أزهار شوكيه
ألقت بي في أفياء المدن الكبرى
لفظتنـي ..
عدت غريبا
لم أتعود أفياء المدن الكبرى
أو غرف المسؤولين
عرّتني أفياء المدن الكبرى .
سلبتني أثوابي
لافتة والجرح القادم من عام الثورة .. في بابي
اشهد يا زمن الزعم غرور الاعراب :
لن تتسلق أشواق الصحراء حرير السرر الورديه .

ان (غرور الاعراب) هذا .. ولنقل انـه : الاعتداد والاباء..او انه الرفض القاسي لاي قانون يغاير حرية الانسان .. الانسان المبتهج في اشراق الصحراء ، هو الذي يوحد حميدا مع سائر الرافضيـن والثائرين الاخرين : في السياسة ، وفي العشق .. وفي الوجـوه الاليفة .. ففي بغداد :

قاتلت رجال الحاكم باسم الله
وهزمت الشرطة في سوق الكرخ .. خرجت
على ظل الله بارضه .

---

(١) انظر مقالة لينين حول مجلة (زفوبودا) ترجمها ادونيس في مجلة (الاحد) ع (٩٧٥) ١٩ نيسان ١٩٧٠ ص ٣٣

وفي رنقة اسماعيل في المغرب ،عود دمه الصمت .. لم يصمت:
كان المغرب في اعراق القادم وحشه
ليل الجاز عـواء
والراقصة الصفراء
افعى تتلوى ..
للرقم القادم صلينا فالاموات هنا
يرقون سفائن ذكراهم حسب الارقام
لكن الرفض المحمول على الاعناق
رؤيا تعبر نحو الاعوام ، تقاتل
بالنبض وبالآلام .

وفي العشق :

(لم أجد غير وجهك ينقذني)

ان بغداد هي المعشوقة والعاشق ، وهي الحبيبة والمحـب .. (المحب يرفض هنا أن يكون متعددا ، دائرا في مدار القوافل كالمحبين العاديين)

(اكتبي في مذكرتي ،
انني لست منهم)

المحب هنا متوحد بمسالك متعددة ، واشراق صوفي يصل حـد (البقاء بعد الفناء) حين يجيء الحبيب ـ القاتل ، فياخذ بيده في رحلة الوجد والفناء في ذاتيـة المحبوب .. وهنا يبلـغ الحب ـ الموت، غايته ـ انتصاره :

مرة كنت في ساحة الصيف أشرب .. نخب السفار
جاءني قاتلي
قلت خذ بيدي
حين القاك في لحظة الموت القى انتصاري .

* *

ان ما يميز حميدا ، هو وضوح رؤياه ، والمعالجة الواقعيـة لتازمات الانسان العربي المعاصر . في المنـاخ الحضـاري الجديد، والوضع المادي والفكري الذي تعيشه الامة العربية والانسانية جمعاء في حاضرها الراهن .

هذا الانسان المنتصر المهزوم .. والمهزوم المنتصر مرة اخرى .

هذا الانسان الذي يعيش هموم العصر : المثقف الثوري ، والمثقف المنفصم الشخصية .. وهذا ما يميز بشكل عام رؤيا الشباب الجديد الشعرية عن رؤيا الشعراء من الجيل الاول لحركة الشعر الجديد .

انها واقعية جديدة ممتلئة بالحلم ، والادراك السليم لحركـة الاشياء وتناقضاتها المتعددة . ولعل هذا ما يضفي بدوره على بعـض شعر حميد شيئا من (العقلانية) او التحكم الذهني المتشح بالاتقاد الوجداني . ويتضح هذا خاصة في القصائد التي تتعرض للمشكلات التي يطرحها العصر ، وخاصة ما يتعلق منها بقضايا الثورة ، وفلسطين ولكن بحس ماساوي متفرد ، او قل : (بفيض يعانقه .. يمتد الـى جذر الـروح)

ففي قصيدته (في اطار التوقعات (٢) مثلا نلمس هذا التمـازج بين الوعي الجدلي ، و (الحس) الدرامي لحركة الواقع وامكانات تطور هذه الحركة . كما في هذا المقطع الذي قد يكون في اجتزائه من القصيدة ، تعسف ما :

ياما قلت لكم ان الموت على طرف الشارع يسعى
لي رئة تتنفس اسماء الموتى من عهد ثمود
تقرأ اسماء الموتى لثمود آت
اعرف أسماء الشهداء ..
اسماء الجبناء ..
اسماء المنتصرين المهزومين
وأسماء المهزومين المنتصرين
فخلف الاشجار .. وخلف الجدران
وخلف الابواب .. أراه معافى
ينهش لحم الاطفال ، عيون الاطفال
مسرات الاطفال
لان الفيض يعانقني .. يمتد الى جذر الروح
أراه ..
أراه ..
أراه ..
آت في خوذات الجند ، وفي صالات المهر
وفي كلمات الشعراء القوادين ..
فليتقدم منكم رجل يخلع عني هذا التاج المجدور
ويعلن رفضي للدور الملكي وللمخرج .

* *

انها واقعيـة فيهـا الشيء الكثير من الصدق والادانة للنفس:
وأنا رجل لم اشهد حربا ..
لم أخسر شيئا من لحمي في الحرب الكونية ، او في حرب حزيران
لم أقتل .. لم أقتل .. لم أحمل أثرا ..
والادانة للمجتمع ، حيث تاتي زمر البوم .. تنوح اغباها ملكا .. فيرحل الشهداء .. وتغص باحات السجون باحلام المضطهديـن ، ويسلب القاتل دور المقتول .. ولكن ابدا يظل ذلك الشيء المتالق .. ذلك الحلم الابيض .. والبوح الانساني ، (أنقى من أوراد الماء) .

ان هذه الواقعية بقدر ما فيها من الصدق والادانـة والعنف ، فيها الكثير من الامتلاء الحلمي ، والوعد الصادق بالفرح ، المبني على وعي بعناصر الصراع الدائم وولادة قوى الخلاص الجديدة :

لقد جاء العربي الوعد
وعاشرت الارض مواسمها
رشت مدن الثورة ماء الحب على عربات الاطفال
سيامن من خاف ..
ويشبع من جاع ..
لان الحلم الابيض جاء الى الارض العربية ..
انقى من أوراد الماء .
في حنجرة النهر أرى صوت الماء .. يهيىء نافذة
لزوارق تنقل اسرار الغضب العربي
تلم ساحات الماء ..
وتصنع منها بيتا للمقتول بيافا .. في اللد .. وفي عمان
على أيدي البدو الآتين من القرن العاشر قبل الهجرة .

ان القصيدة هنا ، بواقعيتها الجديدة ، تكون المعادل الفنـي لرؤيا الشاعر ، ليس الموضوع ، ولكنها الرمز والدلالة . الموقـف . والتاسيس ، والحلم والفرح الذي يشع في وجداننا ، متقدما بنا الى الاجيال الآتية .

وهذا يقودنا الى خصيصة مهمة اخرى يلمحها كل متتبع لشعـر حميد سعيد ، واعني بها ، داب الشاعر على التطور باستمـرار . وتقديم نفسه في (مراحل) متخطية . حتى انه ليصح ان نقول : ان ديوانه الاول (شواطىء لم تعرف الدفء) هو المرحلة الاولى ، وهـي مرحلة يمكن ان نشهد في بعض قصائدها ، بصمات الشعراء الآخرين واضحة جدا . (٣)

كما ان الموروث العربي القديم يكاد باسره أسرا ، ان في اللغـة ،

---

(٢) مجلة (الكلمة) نيسان ١٩٧١ ص ٢٣

(٣) يمكن القول بدقة اكثر ، انها ليست بصمات شاعر بعينه بقدر ما هي تمثل للمنهج والاسلوب التعبيري لقصيدة الرواد في فتـرة الخمسينات كما بلورتها نماذج البياتي والسياب خاصة .

وان في الرؤية الشعرية . ولكن حميدا في (لغة الابراج الطينية) يبدأ مرحلته الشعرية الانقى ، والتي تميزه شاعرا بين الشعراء الشباب بأسلوبه ورؤيته ورموزه . ويمكن ان نجد هذه المرحلة بقصيدته (عيّار من بغداد) ومعظم القصائد الاخرى في (لغة الابراج ..) وخاصة قصائد (الثورة من الداخل) و (عودة الى مرفأ البداية) و (عودة العشق والعاشق) و (طارق بن زياد . وبحر الظلمات . والمدينة وفارس الماء) اما قصيدته (في اطار التوقعات) فهي في رأيي ، تبدأ مرحلة التطور الاغنى في شعره .

بالتاكيد ، اننا اذ ندعي هذا ، لا نعني ان حميدا يحاول ، أو اننا نحاول ، ان نضع (فوارز) بين هذه المراحل ، بقدر ما نقصد الاشارة الى خط التطور في رؤيا حميد الشعرية . واختيار موضوعاته وتطور الوعي بها . فضلا عن تخلصه من كثير من أخطاء المرحلة الاولى ، كالتعامل الرومانسي مع موضوعاته ، والتشدد على القافية ، والايقاع الصلد ، والمباشرة وضعف البناء الدرامي او اعتماد القصيدة على السرد او الصوب الواحد في اغلب قصائد هذه المرحلة اي مجموعة (شواطىء لم تعرف الدفء) . حيث ورثها من مرحلة الرواد للحركة الشعرية الجديدة .

ولهذا فان حميدا ، يمكن القول على ضوء ما تقدم ، وعلى ضوء النماذج الشعرية التي طرحها في مجموعته الثانية (لغة الابراج الطينية) وما بعدها انما يجادل في ترسيخ القيم والاساليب الاصيلة للحركة الشعرية الجديدة لدى الرواد ، واكتشاف قيم واساليب جديدة تستنير وتتاثر الى حد بعيد بالتطورات الهائلة في اساليب التفكير المعاصر في الشعر والرواية .. كما تبحث عن (النبع الثر) في التحولات والتطورات المادية والسياسية الكبيرة الحاصلة في الواقع العالمي والعربي المعاصر ، وخاصة في السنوات الاخيرة حيث تضاعف فيها نضال الانسان ضد قوى القهر من امبريالية وصهيونية . وقوى الشد والتخلف في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع .

وهذا يعني ان حميدا يرتبط كشاعر وكانسان بحركة العصر التي اهم ما يميزها : وضوح الرؤية ، والثورة ضد كل ما هومتخلف واستلابي واشراك الجماهير في عملية التحول والتغيير الاجتماعي ـ بناء الاشتراكية . ثم البحث المستمر ، او التخطي الدائب للمواقف والقيم الفنية ، بوعي عصري حقيقي ، وتقدير حقيقي لحاجات الانسان .

وهذا يعني ايضا ، ان ما يميز حميدا عن بعض الشعراء ، في بحثهم الدائب عن الجديد في الشعر ، ان بعض هؤلاء الشعراء غالبا ما يقودهم بحثهم هذا الى الوقوع في اللاشعر ، او الشكلية البحتة . اذ ينسى هؤلاء انه اذا كان من سمات العصر ، التطور في الاشكال والاساليب ، فان من سمات العصر الاعظم ، تعمق المضامين وتزايد حاجات الانسان ، وتشديد الكفاح من اجل توسيع وتعميق النظام الاشتراكي ، والافاق الفكرية والفنية لهذا النظام . من اجل اعادة بناء الانسان ، بناء جديدا .

ان البعض من شعرائنا ، يسقطون من حيث لا يشعرون ، وهم يتحولون عن مشاكل الانسان المعاصر ، في الفهم البرجوازي للثورية ، ولحركة الافكار . وذلك نتيجة قراءاتهم للاداب البرجوازية المستحدثة دون غيرها .

ان محاولة « تاسيس » كتابة جديدة ، وشعر جديد ، ورواية جديدة .. لا يأتي من الخارج ، من الشكل . انه يأتي من حاجة العصر وحاجة الانسان اولا .

ان اي تجديد لا يأتي اساسا من التطور الحاصل في البناء المادي للمجتمعات ، او لتغيير هذا البناء ضرورة ، انما هو تجديد زائف دون شك . وسقوط في الفهم السطحي لجدلية الاشياء . وجدل الشعر .. ان الشعر الجدلي يتطلب وعيا جدليا وتاريخيا لحركة العصر وحركة الافكار والاشياء . اي وعيا بطبيعة المرحلة التاريخية والحركة الفكرية وعلاقاتهما ببعض .

انا اذ اسوق هذا ، انما لاؤكد مسالة مهمة في شعرنا الجديد ، واعني بها موقف هذا الشعر تجاه واقع العصر بكامله . وليس هذا العالم الصغير الذي هو وطننا (الوطن العربي) ليس الا جزءا من عالم اكبر ، تنعكس عليه المشاكل التي يثيرها هذا العالم الاكبر في شتى المجالات والمظاهر . وفي مقدمة هذه المشاكل : قضايا التحرر السياسي ، والقضاء على التخلف الاجتماعي والاقتصادي ، والتحرر من سيطرة مفاهيم وقيم الثقافة البرجوازية ، ثم القضية الجوهرية والاهم : قضية الاشتراكية ، والثورة الثقافية ، هذه الثورة التي لا يمكن ان تاتي من خارج الانسان ولا من خارج الزمن :

« لي فجوري وانمي ولي زمني ..
انا العابر الاشعث
موتي طريق الى غابة الآدميين .. ام ان موتي
هو الغابة المزهرة . »

الشاعر المعاصر ، شاعر ينسلخ عن الارث الاسطوري ، مبحرا في الغضب .. حيث يتساقط الاخرون حواليه ، اوراق توت تحملها الريح .. بينما يظل الشاعر راسخا (وجهه العروق تمضي الى النهر .. سبحانه يرتمي موجة ومسار .) ومن يكون هذا النهر غير الفرات .. (نهاية العالم انت يا فرات !) ولانه الفرات ، فالشاعر يرتديه كل ليلة ، كما يرتدي الفرات دمه .. انه المطهر من حضارة الحديد . هذه الحضارة التي اهتبلت كل شيء عزيز ، عذب ، وهتكت اسرار الكون ، فافسدت على الانسان ـ الشاعر ، حلمه بتصور وتشكيل العالم كما يريد . لان ما هو قائم ، حقيقة فيزياوية لا مجال للشك فيها :

واهتبلت حضارة الحديد .. عفة القمر
لم تبق في ليالي الصيف .. غنوة
تقتطع الوتر
بروق عصرنا تمرغت على موائد الاسرار
لكنها الاعذار
اجنحة من ورق قديم
يحاولون اليمّ .. لان الارض حلمها بوار

قد يؤخذ على حميد انه حذر في طرح الاشكال الفنية الجديدة ، وببطء شديد احيانا . ولكن الى ماذا ادت ظاهرة (رفض كل ما هو موجود) لدى البعض من شعرائنا الشباب ؟! انا اعتقد ـ مع سارتر ـ ان رفض كل شيء ، يقود الى رفض لا شيء . كما ان عملية تجميع فتات بعض حطام ما افرزته الحضارة الغربية ـ الراسمالية على الشعر العربي لدى بعض شعرائنا ، كالقرف الجنسي ، والتشويش في معمارية القصيدة وتحطيم اللغة وعلاقاتها تحطيما لا واعيا ، وتبني الحرية في الفن بشكلها المطلق بحجة ابراز القسمات الجوهرية للشخصية الانسانية وواقع العالم المعاصر ، انما قاد ـ ويقود ـ الى ضياع الشخصية وفقدان الواقع الحقيقي الذي يدعي الشاعر ، كشفه .

اننا نؤمن بتعدد المناهج والاساليب في البحث والكتابة : شعرا ونثرا .. ولكن فقدان (المنهجية) يقود غالبا الى التشويش . وهكذا فان رفض الواقع جملة وتفصيلا ، بادعاء الثورة ، قد يقود الى الهروب ازاء كل ما هو غير انساني وثوري في الوقت نفسه ، اي يصبح الرفض ، رفضا ذا جوهر رجعي ، وقشرة تقدمية .

ولهذا فانا اقول ، والاحظ ان حميدا في شعره يسير بخطى مدروسة في الغالب ، وخاضعة لنقد ذاتي شديد . ولهذا فان تطوره تطور ذاتي ، نتيجة استجابة واعية لقوة الاشياء . اي ان الرؤية الشعرية تتحدد على اساس من واقع التجربة وتتاصل بها . ترفض حيث ينبغي الرفض . وتبتسم ان كان ثمة ما يدعو للفرح . (ولكن هل ثمة ما يدعو للفرح في مدن شبت على الاحزان !) تدين .. وتنبىء (ان مقاتلا سيجيء) .. وحين يجيء هذا (المقاتل ـ الفارس) (سافك حزني .. ارتضيكم اخوة ..)

ان الرؤية هنا قد تقوم على تحليل جدلي للواقع .. ووعي شديد

التركيز .. ولكن اما آن لهذا الشعر العربي ان يتخلص من الفـــورة العاطفية المؤقتة .. حيث يختفي الواقع والحقائق تحت ضباب ثـــورة الاعصـــاب ؟!

قد يقولون ان القصيدة دفقة عاطفية .. ولكنها اليوم وعي بالفعل والذاكرة . القصيدة ليست حاضرا او مستقبلا .. ولكنها ماض ايضا ليس الماضي الذي يدعوني اليه . ولكنه الماضي الـذي يجـيء الي . ولهذا فاني ازعم ان القصيدة عند حميد هي تشكيل درامي ، وحضور يتقدم من الماضي الى المستقبل . ومستقبل يغرق الماضي ، يخضبـــه بالدم . ليس في حدود الزمن ، ولكن في حضور اللغة ، والصور ، والرؤية ايضا :

عدت تطلب مرفا ؟
عمان مرآة مهشمة
وبينكمـا تحول القدس فهي على الطريق سبية
ملك يهودي يقضي ليلة معها
وقد لقحت ،
فاولدها دما مرا
ومات صبيها العربي مقتولا
رايت على اهابي منه لمح الله
طعم البرتقال وعفة الصحراء
فذكرني بوجه ضاع بين تزاحم الاسماء
رايت جزيرة العرب الفقيرة شاهدا ..
ومسالحا تتقدم الضعفاء ، نحو بلاط كسرى
نحو ارض الروم .
فيامدنا على الاحزان ، شبت
بين احذية الغزاة
بخلت ، مت ، عقمت
تورق نبتة الخابور في سيناء بين مفاصل الموتى
قروحا غضة .. ومرائيا للاهل
حين يشب فيكم فارس .. سافك حزني
ارتضيكم اخوة .. وابشّر الرايات
لفتها يد مختومة بالحزن
فلتتقدم الرايات . فلتتقدم الرايات . (٤)

ويقودنا هذا الى حقيقة شعرية قوية اخرى ، تبرز في هذا النص وفي معظم قصائد (لغة الابراج الطينية) . واعني بها : قوة التشخيص:

رايت جزيرة العرب الفقيرة شاهدا ..
ومسالحا تتقدم الضعفاء ، نحو بلاط كسرى
نحو ارض الروم .

وقديما رأى ذو الرمة ، جزيرة العرب . مفازة مملوءة بالمـاء! ودجلة صحراء .. حيث تسبح الابل في الماء ، والسفن تجري فـي الصحراء !:

كان مطايانا بكل مفازة قراقير في صحراء دجلة تسبح

ان ما يجمع بين الشاعرين هنا ، قوة التشخيص ، وديناميته . والقدرة على استحضار الاشياء والاشخاص في الذهن . سواء كـــان ذلك بالتجسيم عن طريق الصور ، والاشارات التراثية .او عن طريق البناء الروائي للقصيدة ـ كما هو في قصيدة (عيّار من بغداد):

اسمي ابو يعلى الموصلي
من عيّاري بغداد
قاتلت رجال الحاكم باسم الله
قاتلت رجال الحاكم باسم الله الخ

ومن الاولى ، حيث تكون اشارة تراثية صغيرة ذات قوة لاستحضار شخصية (الصعلوك) الشنفري :

تقاذفني الرمال وصحبتي سيد عملّس
أرقط زهلول ..

ولكن هذا الحضور ليس لذاته ، انه شارة (الصعلوك) المعاصر ، المتمرد على القبيلة ، العازف عن كل ما يعبرون !

فحميد هنا لا يفصل شخصه عن شخصياته . انها هو . وهـــو هي . بقوة غريزية اكثر منها حضارية . انه يضفي عليها من نفسه : حبه لها ، وحبه لما أحبت هي نفسها . (٥) يمكن ان نلاحظ هذا فـي قصائد (فاطمة برناوي . وجه عمار بن ياسر . سحيم ،طارق بن زياد. المهدي بن بركة) وفارس الماء في قصيدة (المدينة وفارس المـــاء) والعاشق في (عودة العشق والعاشق) والاطلسي في (بحر الظلمات)

ان ثمة تواصلا حيا ، وحبيا بين الشاعر وكل ما يربطه الـــى الوجود .. تواصل يصل حد القتل عشقا ، او يصل مرحلة (البقاء) بعد (الفناء) بتعبير الصوفية :

« لبستك في ليالي البرد . ايمانا
هرعت اليك
يا حمى من الصلوات .. يا خبزا ،
ويا غيمه
هرعت اليك والاصداء قادمة من الاردن
أنا المقتول تدفعني الى ايامك الخضراء
أصداء من الاردن
تقرّب بيننا الاسباب .. اعصابي تباشير
وقلبي راية بيضاء . »

ان التواصل هذا ، هو في الحقيقة حركة وقدرة على استحضار قوانين القصيدة الخاصة بالابداع لا بالخضوع لسطوتها .

ان الشاعر المعاصر ، اذ يؤكد حريته ازاء الحاضر ، ينبغي ان يؤكدها بدوره ازاء التراث . وازاء عمله الفني ايضا . اعني ازاء حرية الخلق . « وكما كان الادب تاكيدا مستمرا للحرية الانسانية ـ كمـا يقول سارتر ـ وكما كان سعيه وراء الجمال يتطلب دائما تلك الحرية. فمن الخطأ القول بان هناك شيئا يسمى ادبا متشائما . »

ومعنى هذا ، ان شعرنا الحديث ، وهو كثير الانتقاد للمجتمـع القائم ، والتسلكات الفردية البرجوازية للمثقفين ، فـان هذا الشعر لا يوصف بانه متشائم او انه متفائل ،لان التشاؤم والتفاؤل انمـاهو نتيجة تتعلق بالمظالم الاجتماعية او بالمتاعب الفردية .

ولهذا فان الزعم بان حميدا متشائم ، انما هو زعم ينطلق من فهم غير جدلي للواقع الموضوعي ، ولمفهوم الادب المتشائم او المتفائل .

لم يكن بازاك متشائما عندمـا صوّر بشاشة مطامع البرجوازية وقبح استغلالها .. انما وصف بانه كاتب جيد . واذا كان حميد قد اكثر من نقد الواقع العربي ـ السياسي والاجتماعي والثقافي ـ فمعنى ذلـك انه ينطلق منطلقا سليما وحرا . وليس كل نقد سليما وحرا (كنقد نزار قباني مثلا :

النقد السليم والحر هو القادر على رؤيـة المظالـم والفسـاد وتشخيصها ، القادر على طرح السؤال :

ابتداء من القادمين
وانتهاء بنا نحن فرسان عصر النحاس الحزين
كل آت سيحمل لعنته حجرا ...
• • •
ان جيلا سينهل مما سقينا
من حديث الدراويش في الموت .. ثم النشور

(٤) من قصيدة (حول مستقبل المدن المهزومة) مجلـة (الاقلام)ع: (٢ ـ ٣) اذار ـ نيسان ١٩٧١

(٥) انظر مقالنا (اعادة كتابة قصائد) مجلة (الاقلام) ع (٢ ـ ٣) اذار ١٩٧١

حين تنفك هذي القبور ..
هل سيلقى على الدرب احسن مما لقينا ؟

ثم هو النقد القادر على رؤية قوى التحرر .. الذي ينبىء بالمستقبل .. بالفارس الذي يجيء ، يسقط راية الخوف .. ويشعل نار الثورة الآتية :

تنطوي راية الخوف .. تسقط
فالسماح يصخب
اين مسار الفتى ؟؟
والدخان يغطي جبين المدينة
هذا صباح المسار .

* * *

ان الشاعر لكي يكون منسجما مع نفسه ، ملزم بتقديم اعترافه امام العصر ، انه شاهد العصر ، وقائل العصر ، والمنبىء بعصرجديد. ليس هذا تنجيما انما هو تنبوء حقيقي : فالحياة واقع وحلم . والانسان يعيش بسلام كما يعيش في الدم . وان هناك شقاء يخطئه العصر ، وهناك امل بالسعادة كبير (٦) . والشاعر الصادق هو (الجيولوجي) القادر على النفاذ الى اعماق الواقع الاجتماعي، راصدا الواقع منبئا بالمستقبل . انه يمتلك قوانين المعرفة ـ وحركة المجتمع ، مسقطا ما هو فاسد ولا انساني ، ومسهما في خلق ما هو انساني وعادل . ليس الشاعر حرا الا بقدر ما ينحاز الى جانب المضطهدين ، ضد القهر والاستعباد . ليسوا احرارا الشعراء الذين يقفون في صف المستغلين ودعاة العنصرية واعداء التحرر والاشتراكية .

ان القاعدة الذهبية ، اذا كانت ثمة قاعدة ذهبية للابداع الفني، انما تتحدد اولا وقبل كل شيء بموقف الشاعر ازاء عصره ، وازاء القضايا والمشكلات الانسانية التي يطرحها هذا العصر . على ان تكون عملية الابداع ، عملية خلق حرة على المستويين الفني والفكري .اي ان الشعر ، كما قلنا (٧) : موقف انساني حضاري معبر عنه بلغة تحترم الحياة . موقف انساني في عالم متحضر ، تحضره قيم التقدم والاشتراكية والحرية . ولغة جديدة نابضة بالحياة . لغة خلاقة.

ان ثمة منطقا ديالكتيكيا يحكم تطور الاحياء ، ومنها الشعر. فالشعر هو الحياة الاغنى والاشمل . والجدة في الشعر تفاعل حضاري متطور ، شمولي . يرفض عصر الجليد الذي يحاول ان يلف عصرنا من جديد . يرفض ان تتتالى الاجيال على نمط واحد .. متطلعا الى الخلاص .. الى الفرح . (مع اقرار الشاعر بان ثمة مظاهر شوهاء تشده الى عصر الجليد الاول) :

أكاد اشك ان دماء اهلي في شراييني
نسيت طقوسهم ورفضت وجهي .. وجه آبائي
فعشت ممزقا من دون آلاء
تطاردني بليل الصمت اصدائي
متى يا دفء تغمر قلبي الظمآن للفرح
متى يادفء يندحر الجليد ، يذوب عن حسي
فان حديث اهلي لم يزل في القاع من نفسي
وان مظاهرا شوهاء ما فتئت
تطاولني يد ثلجية منها .

واذا وجدنا حميدا يكثر من الاستفادة من قيم التراث العربي ،فلا يعني ذلك انه بعيد عن العصر والحداثة في الشعر . بل الاصح ان يقال انه استمساك بالجذور الاصلية للقيم الحية في التراث العربي ـ الشعري والاجتماعي ـ حيث تمنحه هذه قدرة على الاستجابة لموضوعات العصر ، وتحديا لقوى الاستلاب والانبهار بالتجديد الشكلي الذي يطغى على معظم شعرائنا هذه الايام . والذي هو بدوره لا يعدو ان يكون استجابة غير واعية لافرازات الحضارة التكنولوجية الراسمالية المعاصرة على الشعراء الشباب في اوروبا واميركا.

انه استمساك بالارض الموروثة . وليس ثمة شيء ، ينبت خارج الارض الموروثة . كما يقول اندره مالرو : وحينما ينكر الناس التراث تصمت العبقرية سنين طويلة لان الانسان لا يستطيع ان يمشي على الهواء » .

وعلى هذا فالانفصام الذي نجده لدى بعض شعرائنا ، بين موضوعاتهم واشكالهم ، يكاد ينعدم في شعر حميد حيث تكون اللغة والايقاعات والشكل،هي الاستجابة الضرورية للمضمون . اي ان القصيدة ككل ، هي موقفه من العالم ، سلبا او ايجابا . انها محاولة لخلق التوازن الدائم بين طموحه المتوتر كشاعر وطموح مجتمعه المتحفز الى التحرر والتطور .

وترجع هذه الى محاولة اعادة النظر المستمرة في الشعر ، واعادة تقييمه . ان ثمة ظروفا دفعت بالشاعر الى اعادة النظر في الشعر ، وفي مشكلة الشعر . وخاصة بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ بالنسبة للشاعر الستيني حيث كان الشعر قبل هذا يعتمد في حضوره على التلاعب بالالفاظ ونسخ المجاز والرموز ، ويعتمد على اللاعقلانية ـ مخالفة للعادة لا اكثر .

ولهذا فان احداث حزيران ١٩٦٧ احدثت في الشعر اضطرابا كبيرا وعميقا . انضج بعض الشعراء ، وعقد الصلة بينهم وبين الجمهور على اساس جديد ، وفهم جديد . غايته البحث عن الحقيقة واطلاقها من اسرها ، لانها السبيل الى خلق الحياة الحقيقية بالنسبة للشاعر والمجتمع على السواء . وحميد يحرص ان يكون هذا الشاعر الذي يقدم للقارىء نفسه كما هو في حقيقته ، كما يحرص ان تظل صلته بالجمهور قائمة . ولكن عن طريق القلب لا عن طريق المعتقدات . عن طريق الشعر لا عن طريق المشاهدة :

تدور رحى القبائل .. تطعم الاسوار ابوابا
وقد دارت رحاكم فوق صدري
لم اجد طحنا ولا طحان
برئت الى دمي منكم
فقافلتي تمر على اعتداد النار

* * *

قد يكون هنا ، طموح لاظهار الروح الذي تالم كثيرا على ارض الواقع العربي .. ولكن العالم سقر يعيش نوعا من الحياة ، ليست هي الحياة كلها . والشاعر ينزل بجسده هذا العالم . مقدرا العذاب في سبيل الديمومة . في سبيل ان لا تكون اوقاته ، اوقات مقطوعة.

ومعنى هذا ايضا ان الشعر عند حميد « امتحان » داخلي للارتباط بالعالم والاشياء . واختبار لهذا الارتباط في الوقت نفسه . حيث تكون العلاقة الاصيلة ، اولية ، ونابعة عن ارتطام العالم الداخلي بالعالم الخارجي . ولكن بوعي تاريخي جدلي ، يستطيع به الشاعر ان يرى ما وراء هذا الارتطام من ولادات جديدة :

حلم يأتي لكن القلب .. ندا ركه التعب
لست الآتي من مدن الخوف ولكن القلب
ندا ركه التعب .
في عام الهجرة .. في التاريخ القادم ، او في عام الفيل
ساخطّ على صفحات اليتم المشتعل .. المرحلة الاولى
من ملحمة التدوير
ساقول لكم ان وراء الافق الشاحب شيئا يأتي
انسانا مجروح القلب .
اوراقا تتعرى عند جموح المتنبي
فاكهة النار .. تطهر اشعار الحب
تفتح نافذة للآتين
وتساوي بين السلم وبين الحرب

بغداد

طراد الكبيسي

(٦) جان جيرودو ـ انظر : الرؤيا الابداعية ـ ص ١٩٤ .
(٧) شهادة عن الشعر العربي الحديث ـ مجلة (الطريق) ع : (٥) ايار ١٩٧١ ص ٩٢ .